

جريدة الجمهورية 30/12/2012

2013 مسارات لا بد منها.

إذا كما يتشَبَّث الفرد بقناعاته السياسية والاجتماعية والإقتصادية والوظيفية أو حتى العسكرية، هكذا تتشَبَّث الأحزاب بخياراتها وسلوكها وأدائها، وتمارس مرونة هنا وتصلباً هناك، ويصرِّح فيها قادتها بما يعلمون أو بما يجب أن يقولوه للرأي العام ، سواء بما هم قادرون عليه أو بما يصبون إليه.

وقد تندرج مواقفها في سياق ردود الفعل ليس إلاً ، فيأتي صانع الحدث ليحرك الأجسام الصغيرة في مسرح سياسي محلي أو دولي. وتكمن مشكلة الأفراد والأجسام الصغيرة أنها تتحرك من خلال ما تدري ، وتبقى ضحية ما لا تدري ، ناهيك عن المصالح التي تؤثر في دفّة توجهاتها وهنا يمكن وعلى حد قول "روزفلت" تصنيف الحزبيون إلى ثلاث فئات أصحاب العقول الكبيرة التي تناقش الأفكار، وأصحاب العقول المتوسطة التي تناقش الأحداث وأصحاب العقول الصغيرة التي يكون محور نقاشها الناس.

أما الدول ومن يوجّه خياراتها فبعضها أيضاً أجسام صغيرة يدور في فلك الأجسام الكبيرة أي الدول العظمى، وقد يأتي رؤساء دول صغيرة يغيرون قليلاً في سياساتها ، لكنهم في الغالب يقعون أو يوقعون بلادهم أو بلدان أخرى في مأزق أو مخاطر الهلاك.

بعض الدول التي عُرِفَت تاريخياً أنها دول عظمى والتي شاب موقعها مؤخراً خلل ما، عكفت على إعادة تلميع صورتها على المستوى الدولي، فعلى سبيل المثال لا الحصر، وبعد انقراط عقد الإتحاد السوفياتي وانحسار المواجهة الباردة بينه وبين الولايات المتحدة الأميركية، وعلى أثر تفرّد هذه الأخيرة في السياسة الدولية حيث واجهت المصاعب العسكرية من جهة والإقتصادية من جهة أخرى، الأمر الذي جعلها تعيد حساباتها في كل موقف تتخذه لا سيما إذا كان له علاقة بالتوازن على الصعيد الدولي، ما حدا بروسيا إلى انتهاز الفرصة المؤاتية بغية إعادة التذكير بأنها دولة عظمى، وقد جارتها الصين في ذلك إضافة إلى بعض الدول التي تعارض تفرّد وهيمنة الولايات المتحدة الأميركية.

وبين الخيارات الفردية والحزبية المحلية والخيارات الدولية يبدو أن مسار الأحداث متجهاً إلى مزيد من التشَبَّث بالخيارات المأخوذة في لبنان، فالمؤمن مثلاً بتوجهات وممارسات حزب الله باق على قناعاته ، والأحزاب الأخرى مستمرة أيضاً في خياراتها وفرزها العامودي. الكل يراهن على لحظة المواجهة أو الحسم على الصعيد الدولي أو الإقليمي كي يثبت موقعه أو يعيد تموضعه، وإذا ما أتت لحظة الحسم لصالحه فيشمخ ويتشَبَّث أكثر في خياراته، وإلا فينكفئ أو ينزوي.

في العام 2013 وبعد الإنتهاء من الإنتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأميركية، يبدو أن إدارة الرئيس أوباما وضعت الملف السوري على السكة الصحيحة بغية الإطاحة بالأسد وبنظامه، في الوقت الذي تؤكد فيه روسيا من خلال ديبلوماسيتها الناشطة هذه الأيام أنها غير متمسكة بالأسد، مدعومة بمواقف الصين المؤيدة أو أنها ربما تريد خروجاً نظيفاً للأسد وعائلته من سوريا.

أما أوروبا العاجزة عن الحسم فتتنشط فيها الدبلوماسية عندما يضعف الخيار العسكري لديها، وتقتصر إمكانياتها على محاولة الحصار المالي والنقدي والإقتصادي، فيما يستمر نضال السوريين العاجزين بدورهم أيضاً عن الحسم على الرغم من بعض التقدم الذي أحرزوه، وفي خضم هذا الواقع يسدّد وحده الشعب السوري الفاتورة الأكثر ارتفاعاً.

وقد تهدف السياسات الدولية إلى إيصال الشعب السوري لمبتغاه منهكاً مدمراً بالكاد يستطيع أن يتنفس حرية ما، كي يبقى رهينةً للدول التي ستمد له يد العون. فالمجتمع الدولي لن يساعد دولة صغيرة قابلة لأن تسير في مسار غير واضح الإتجاه، بل سيمد يد العون لشعب راغب في التعاون معه. وهذا ما يجب أن يؤخذ في الحسبان يوم تأتي ساعة الحسم سواء أنت من هنا أم من هناك.

في التاريخ الحديث أثبتت مفاهيم الحرية أنها وحدها الآخذة في التقدم، وقد بات مغذاها الرئيس عالم الإتصالات والتواصل الإجتماعي الذي اختصر عالم المعرفة التقليدي المبني على التدرج في ولوج باب العلم والمعرفة، يساعده في ذلك المسار السريع لعالم الإعلام الآخذ في الإنتشار على بقاع الأرض كافة وربطها بعضاً ببعض، حيث عززت عن ذلك العلاقات الدولية.

وإذا كنا لا نتنبأ بمسار الأحداث في العام 2013 كمن هو مرغم على التنبؤ بما لا يعلم، إلا أننا نرى أنه عندما تحصل مواجهات صامتة أو باردة، ساخنة أو طاحنة فلا بد أن تنتصر مسارات على أخرى، وإن من سيخسر بصورة بطيئة فإنه قد يطيح بكل شيء أمامه، فلن يسأل عن مؤسسات دولة أم إقتصادها أم إستحقاقاتها الدستورية أم تركيبها الإجتماعية، في مقابل عجز الشعوب الضعيفة عن تفادي كل هذه الأضرار معاً.

أما نحن فليس علينا إلا أن نؤمن بأن ثورة الإنسان على مختلف الأصعدة آخذة في تحقيق أهدافها ولو بعد حين وإن بطرق لم ترض هذا أو ذاك.

المحامي الدكتور أنطوان أ. سعد